حول قضايانا الراهنة (*)

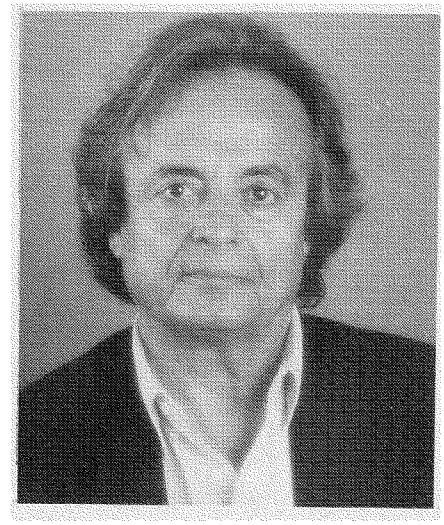

أدونيس

- ١ -

ما يكون دورُ مُثقّف عربيّ، خصوصاً إذا كان حاضراً في المجالات الثقافيّة الأوروبيّة المليئة بمن يناصرون إسرائيل؟ هل يقاطعها؟ وماذا تعني مقاطعتُه للملتقيات العالميّة التي تبحث في قضايانا، وما أهمّيّة هذه المقاطعة، وما جدواها أو فاعليّتها؟

إنّ اجتهادي الشخصيّ هو أنّ من واجب هذا المثقّف أن يحضر مثل هذه الملتقيات، وبخاصّةٍ حيثما حضرَ المعادون للعرب وللثّقافة العربيّة.

فدور المثقّف العربي في الغرب لا يجوز أن يكون دورَ انكفاءٍ وعزلة، وإنّما يجب أن يكون هجوماً واختراقاً. . . خصوصاً أنّ لجانب كبير من مشكلاتنا جذورَه هناك.

ولهذا كان عددٌ من مقالاتي ومداخلاتي التي نُشِرَتْ تَرِد في سياق سجال مع كتّاب أوروبيين. وأنا في الأساسَ لم أكن في أيّ يوم منسجماً مع الخطاب العربي الدوغمائي الجامد أو الانفعالي الحماسي الذي ساد ولايزال سائداً.

ولعلّنا جميعاً نعرف التأثير الذي مارسه ويمارسه المثقّفون والإعلاميّون اليهود وأنصارُهم في العالم الغَرْبيّ. ونعرف الصّورةَ التي عُمِّمَتْ عن العرب والثّقافة العربيّة. ولعلّنا نعرف جميعاً كذلك، فاعليّة الرّأي العالمي، اليوم، والغربيّ خصوصاً، وأثره في قضايانا. وهذا ممّا يفترض فينا جميعاً العملَ ضِدّ كلِّ ما يشوّه حقيقةَ العرب. وقد بلغ هذا التشويهُ أوْجَهُ سياسيّاً، بحيث يبدو العربيُّ معتدياً، متخلّفاً، لا يقيم للإنسان أيّ احترام؛ ويبدو الإسرائيليُّ ضحيّة، وسبّاقاً في احترام الإنسان، وفي الدّيموقراطيّة والتقدّم.

> حرصي على حضور المؤتمرات الدولية ـ كـ «غرناطة» و«روتردام» ـ يهدف إلى إبراز الوجه الحضاريّ المضيء للثقافة العربيّة، ولاسيّما في مواجهة أشخاص معادين لهذه الثقافة ولمنتجيها!

ولهذا كان في أساس نشاطي الفكري في أوروبّا والعالم، أن أعطيَ للثّقافة العربيّة وَجْهاً إنسانيّاً، مُحاوِراً، ومنفتحاً على الآخر. وكم يبدو ذلك ملحّاً وبالغَ الأهمّيّة حين نُدرك أنّ الصّورة التي تُعطى لهذه الثقافة ـ بعاملِ التشويه المقصود، من جهة، وبعوامل ترتبط بأفكار وأعمال بعض الحركات المتشدّدة في أصوليّتها السّلفيّة من جهة ثانية ـ إنّما هي صورةٌ كريهة تُخيّل للغربيّ أنّ ثقافتنا ضدّ الحرّيّة وضدّ الإنسان وضدّ الفكر، وضدّ الآخر.

ومن هنا حرصي الدّائم على حضور المؤتمرات التي أُدعى إليها ويتاح لي فيها أن أُبرز الوجهَ الحضاريّ المضيءَ، للثّقافة العربيّة. . وبخاصّة المؤتمرات التي يحضرها أشخاص معادون للعرب وللثّقافة العربيّة.

ولم يكن حضوري «مؤتمر غرناطة»، ومهرجان روتردام الشعريّ، تمثيلاً لا حصراً، إلّا توكيداً لهذا الحِرْص. وهو الحرصُ الذي يصدرُ عن قناعةٍ عميقة راسخة بأنّ الثّقافة العربيّة، وبخاصّة جوانبها الإبداعيّة الشعريّة، ليست مجرّد ثقافة «تاريخيّة»، مضَى وقتُها، وهي الآن تجرّ نفسَها ـ كما يصوّرها المعادون الموالون بخاصّة للنظام الإسرائيلي ـ وإنّما هي على العكس، عنصرٌ أساسيّ ومكوّنٌ في الثّقافة الكونيّة الرّاهنة.

وهكذا كانت تُتاح لكثير من المثقّفين والكتّاب الغربيّين مناسباتٌ في المؤتمرات للاطّلاع على وَجْهٍ آخر للثّقافة العربيّة، غير الوجه الذي يرسمه لها أعداؤها ـ وبخاصّةٍ

(*) هذه الخواطر ليست ردّاً، وإنّما هي توضيحٌ أكتبه تلبيةً لرغبة الصّديق العزيز الدّكتور سهيل إدريس. وآمل أن يتاح لي قريباً أن أكتب مقالاً مطوّلاً، يتناول مختلف القضايا الثقافيّة التي تثيرها مسألة السّلام مع إسرائيل.

الأوساط الإسرائيليّة المتصلّبة، والكتّاب المرتبطون بهذه الأوساط. وإجمالاً، كان هؤلاء يستاؤون كثيراً من تقديم الثقافة العربيّة على حقيقتها ـ لأنّه يكذّب دعاواهم، ويشكّك الغربيّين بهم، ويضيء الجوانب المحجوبة من الثّقافة العربيّة. وإنّه لأمرٌ يدعو إلى العجب أن يعملَ بعضُ الكتّاب العرب على نقد مثل هذا الموقف، تماماً كما يفعل بعضُ الكتّاب الإسرائيليّين المتعصّبين: تكون من الجهة العربيّة مُتّهماً بمصادقة اليهود والسّلام مهمّ، وتكون من الجهة الإسرائيليّة مُتّهماً بمعاداة اليهود ومعاداة السّلام!

ـ ٢ ـ

إنّ عدداً من مقالاتي ومداخلاتي، التي نُشر بعضُها بالعربيّة بعد نشرها بلغات أجنبيّة، وَرَدَتْ في سياق سجالٍ مع كتّاب أوروبيين، حول قضايا عربيّة وحول حرب الخليج... ولاسيّما المقال الذي كثرتِ الإشارةُ إليه مؤخّراً، والذي نشرته جريدة **القدس** الصادرة في لندن. هذا المقال، كما يتّضح في مقدّمته، نُشر بالألمانيّة والسويديّة والفرنسيّة ردّاً على الشّاعر الألماني الشهير أنزسبيرغر وقد جرفه التيّارُ الإعلاميُّ الغربيُّ أثناء حرب الخليج؛ إذ دأب الإعلام الغربي على تقديم الحرب ومسوّغاتها بصور تبسيطيّة كنائيّة (خير/شرّ) وعمل على تشبيه الرئيس العراقي بهتلر، كي يستنتج ضرورة تدمير العراق كما دُمّرت ألمانيا النازيّة. وفي المقالة أبيّن خرافيّةَ هذا التشبيه وخطل هذا الاستنتاج، وأنّ كون الرئيس العراقي ديكتاتوراً أمر يتبرّأ منه الشعب العراقي، وهو لا يعني بالتالي ضرورة الحرب وضرب العراق. وفي المقال نفسه أندّد بتبعيّة المفكّرين الأوروبيّين للولايات المتحدة وللإعلام الأوروبي البعيد عن الواقع والحقيقة.

وفي ما يتعلّق بالعراق فإنّني ميّزت وأميّز بين النظام والشّعب. وَقّعت وأوقّع جميعَ العرائض التي تدعو إلى فَكّ الحصار عن الشعب العراقي. وأدعو وأعمل، باستمرارٍ من أجل ذلك. لكنّني لا أستطيع أن أدافع عن نظام دكتاتوريّ هو، في المقام الأوّل، موضع نَقْدٍ ورَفْض. غير أنّني أرفض في الوقت ذاته أن تطيح به قوىً أجنبيّة. فهذه مهمّة يجب أن يتولّاها الشّعب العراقيّ نفسه.

ـ ٣ ـ

أظنّ أنّنا لا نجدمثقّفاً عربيّاً حقيقيّاً يُقيم تماهياً بين شعبه ونظامه السّياسيّ. لذلك أفترض أنّ المثقّف لا يمكن أن يقيم بين اليهود والنّظام الإسرائيليّ تماهياً. ومن بابٍ أولى ألاّ نقيم تماهياً بين الكتّاب والمفكّرين والفنّانين المبدعين والنظام، أيّاً كان هذا النظام.

إذا رفضنا هذا التّماهي فهناك إمكان للحوار بين المثقّفين، مهما كانت اتّجاهاتهم، وانتماءاتهم الفكريّة متباينة.

الحوار بين الفكر العربي واليهود لم ينقطع على مدى التّاريخ العربي، و«التطبيع» ألُهيةٌ جديدة للكتّاب العرب تبدّد طاقاتهم عبثاً وتمزّقهم!

ونحن نعرف أنّ الحوارَ بين الفكر العربيّ واليهود لم ينقطع على مدى التّاريخ العربيّ، وقد بلغ ذورته في الأندلس. وإذا أضفنا إلى هذا الحوار الثقافيّ، الحوارَ الدينيّ الذي أسّس له القرآنُ الكريم، يمكن القول إنّ اليهودَ جزءٌ من تاريخنا، سلباً أو إيجاباً، وأنّ اليهوديّة، على هذا المستوى غير منقطعة عن المشكلات العربيّة.

ـ ٤ ـ

«التطبيع الثّقافي»، في هذا الإطار، عبارةٌ من خارج الثقافة. إنّها عبارة سياسيّة ـ بالدّلالة السّطحيّة الإعلاميّة. بل هي، ثقافيّاً، عبارة تناقضيّة ـ خصوصاً عندما نعني الجوانب الإبداعيّة من الثّقافة. فلا تثير الثّقافة الإبداعيّة إلاّ التّباينات والتّناقضات حتّى داخل اللّغة الواحدة، والثّقافة الواحدة. فالثّقافة الخَلاّقة إعادات نظر وتساؤلات، واستقصاءات، وزلزلة للمستقرّ، فكيف تكون «تطبيعاً»؟

هكذا أميل إلى القول إنّ الكلام على «التطبيع الثقافي» بين العرب وإسرائيل إيهام. وليست هذه العبارة أكثر من شعار بديل وتعويضي لملء الفراغ الذي كانت تشغله شعاراتٌ لم يبتّ لها رواج ولا سند واقعي. ولعلّه أن يكون نوعاً من التغطية على التطبيع الآخر: السّياسي، الاقتصادي، الإعلامي، السياحي، إضافة إلى طرق التواصل الأخرى. إنّه ألُهيةٌ جديدة للكتّاب العرب، تبدّد طاقاتهم عبثاً وتمزّقهم.

إلى هذا فإنّني أتساءل كيف يمكن بعضنا أن ينادوا بعدم «التّطبيع الثّقافي» مع إسرائيل ويسكتوا عن جميع أنواع التطبيع الأخرى؟ وإذا كان «الثّقافي» يشمل الإعلامي والاقتصادي والتقني والسّياحي، فلا يبقى لهؤلاء إلاّ العلاقات والاجتماعات بين كاتب عربي وكاتب يهودي. هل رفض هذه الاجتماعات وهذه العلاقات، وقبول كلّ الجوانب الأخرى المشار إليها، هو «الصّراع الثّقافي» الذي يبشّرون به؟

من طبيعة العمل الثقافي، إن كان إنسانيّاً وخلاّقاً، أن يكون الآخرُ، دون تمييز، همّاً أوّليّاً من همومه: يحاوره، وينقل إليه كشوفه ونظراته إلى الإنسان والعالم.

ـ ٥ ـ

السّلام مع إسرائيل: أفهم أن يكون لهذ العبارة وقع مرعب في نفوس الذين ولدوا في الحرب على إسرائيل، ونموا وشبّوا وكادوا أن يشيخوا في هذه الحرب. لكن على هؤلاء أن يستيقظوا ذات يوم ويسألوا أنفسهم: ما هذه الحرب التي نحشد لها كلّ قدراتنا ولا نحصد منها غير دمارنا المتواصل؟

في ما يتعلّق بي، أفضّل سلاماً ناقصاً، على حرب توجّهها وتهيمن عليها أصوليّات تؤوّل الدّين تأويلاً بعيداً عن حقيقته، ولا يمكن في الوقت نفسه إلاّ أن تكون حرباً خاسرة على جميع المستويات.

- ٦ -

إذا كانت مهمّة السّياسي التشدّد فليست مهمّة المثقّف التساهل بل تحريك أفكار وطرح رؤى. مثلاً كان طرح الدولة التعدّديّة الديمقراطيّة في فلسطين متقدّماً جداً، ومايزال الطّرح الأمثل. لكنّه طَرْحٌ يحتاج عمليّاً إلى جسر أو مبدأ لابدّ منه: يحتاج إلى علمنة الدّولة بالمعنى الفكري العميق الشّامل ومحاربة التمييز الذي تقوم عليه أيّ دولة دينيّة؛ يحتاج أساسيّاً إلى الاعتراف المتبادل بالآخر اعترافاً حقيقيّاً. وبخلاف ما تعلن عنه الاتفاقاتُ الجديدة، فإنّ هذا الاعتراف لم يتمّ حقّاً، وإنْ تمّ من جانب بعض السّياسيّين العرب. والسّلام يبقى كلاماً واتّفاقيّات بين رؤساء دول في غياب هذا الاعتراف. وعمليّاً السّلام الذي حقّقته الاتّفاقات المبرمة - حتّى الآن - لايزال سلاماً بين أنظمة. وهو لذلك سلام قابل للانهيار. فهو - حتّى الآن - لا يقوم على اعتراف للفلسطينيين بكامل الحقوق، وفي مقدّمتها حقّ العودة من المنافي، في الوقت الذي يستمرّ فيه التوكيدُ الإسرائيلي على حقّ كلّ يهودي بالاستيطان في فلسطين.

أكيدٌ إذن أنّ هذا السّلام لا يَرْقى إلى المستوى الذي كنّا ننتظره، والذي تفترضه حقوق الإنسان. ومع ذلك لا يجيء الانتصار بمعناه الإنساني، ولا تجيء هذه الحقوق من أنقاض الحروب.

ولا يعني السّلام زوال الفروق والصراعات؛ بل يمكن أن يكون الصّراع عميقاً ويستنفر الفعاليّات الثقافيّة والإبداعيّة لدى الأطراف. فالفعاليّة الثقافيّة ليست عمياء وانسياقاً سلبيّاً. والحوار ليس تماهياً بالآخر، بل إنّه أكثر قرباً إلى التمايز والاختلاف. وربّما أتاح هذا السّلام للعرب أن يتعرّفوا بمزيد من العمق على نفوسهم وقدراتهم. وربّما أتاح لهم أن يفجّروا طاقات أخرى خلاّقة كانت مكبوتة فيهم أو مغيّبة.

وفي هذا الإطار أعود وأكرّر أنّ الانكفاء الثقافي لن يكون إلاّ تتويجاً للانكفاءات الأخرى.

إنّني مؤمن بثقافتي العربيّة، رغم هامشيّة المثقّف العربي. مؤمن بأنّ لديها ما تقدّمه للعالم. وهي ثقافة أغناها التنوّع وتعايش التيّارات المختلفة، على الرّغم من أنّ البعد النقدي الخلاّق فيها دون طموحنا. ولا أجد

الخوف على الثقافة العربيّة من الذوبان في ثقافة أقلّيّة خوفٌ وهميّ، والأحرى أن يجد الخوف مسوّغاته عند اليهود!

أيّ خطر على الثقافة العربيّة من الذوبان في ثقافة أقلّيّة؛ وهو خوف وهميّ. الأحرى أن يجد الخوفُ مسوّغاته في الطّرف الآخر لأنّه «ملغوم» لا بالمؤثّرات العربيّة وحدها بل بجذور عربيّة أيضاً. وهناك جاليات يهوديّة عربيّة احتفظتْ بتماسكها وتقاليدها الثقافيّة العربيّة رغم تشدّدها السّياسي وتسليمها بالنظريّة التي قامت عليها الدولة الإسرائيليّة. وقد ظلّ ذوق هذه الجاليات ونمط حياتها قريباً جدّاً من المناخات الثقافيّة التي نشأت فيها في المغرب والعراق واليمن.

أضيف أنّ الثّقافة في إسرائيل متعدّدة المراجع متعدّدة الجذور وإن كانت الأفكار السّياسيّة متقاربة، لاسيّما في ما يتّصل بنظريّة الدّولة. وإذا كان لهذه الثّقافة مرجعان رئيسيّان هما الغرب التقنّي والدّين اليهودي، فهناك مراجع بعدد الشّعوب والثّقافات التي جاء منها سكّان إسرائيل؛ ولا يجوز أن ننسى أنّ للثّقافة العربيّة بينها موقعاً أساسيّاً، وربّما كانت لها قدرة خاصّة على اختراق هذا المجتمع.

- ٧ -

من حيث المبدأ، واستناداً إلى خبرة العرب التاريخيّة، بعامّة، وفي النصف الأخير من هذا القرن بخاصّة، أجدني أميل إلى السّلام. ولست معنيّاً بالمستوى السّياسي والتنفيذي. فأنا كمثقّف وهامشيّ لا أمثّل أيّ جهة رسميّة. لكنّني معنيّ بالمستوى المبدئي، وبالسّلام كمفهوم. أنا مع السّلام شرط العدل وضمان الحرّيّات. وكلّ سلام بدون هذا الشّرط سلام مؤقّت.

مبدأ السّلام لا يعني التنازل عن القضايا التي كانت قائمة، بل يعني السعي لحلّها بغير السّلاح، يعني نقل الصّراع من ساحة القتال إلى ساحة أخرى تتقاسم الأدوار فيها السّياسةُ والأعلامُ والثّقافة.

- ٨ -

كان موقفي الثّقافيّ منذ بداياتي الأولى مختلفاً كلّيّاً عن الموقف الذي كان شائعاً لدى معظم المثقّفين العرب. كانت الثّقافة، بالنّسبة إليهم، شأناً وظيفيّاً. وكانت، بالنّسبة إليّ، أعمق وأبعد من ذلك. فالثّقافة كما أفهمها وأمارسها هي هويّة الأمّة وكيانُها. ولهذا هي مسألةٌ لكيانيّة لا مسألة وظيفيّة. فالعرب هم، بالنّسبة إليّ، كينونةٌ ثقافيّة في المقام الأوّل. وظنّي أنّ الخطوة الأولى في الدّور الذي يجب أن يلعبه المثقّف العربيّ، في هذه المرحلة، هي أن ينظر إلى الثّقافة العربيّة هذه النظرة - أن يرى إليها بوصفها تأسيساً، لا بوصفها إعلاماً.

هكذا لا يمكن، كما أرى، متابعة تفكيرنا الذي درجنا عليه، ولم يعد ممكناً أن ننظر إلى الحاضر والمستقبل بمعايير العمل الثقافي الذي نشأنا عليه ومارسناه. إنّ نقطة البداية في عملنا الجديد هي إعادة النظر، جذريّاً، في ثقافتنا نظراً وممارسة.

وهكذا يمكن أن يكون السلام مناسبة تاريخيّة لكي تستردّ الثقافة العربيّة دورها الأساس. والمسألة إذن هي المجابهة - هي الحوار. إنّ دور الكاتب العربي في السّلام هجوميّ، ولا يجوز أن يكون انكفائيّاً. الانكفاء إجهاز على ما تبقّى من حيويّة الثقافة العربيّة: إفساح المجال لهيمنة السّياسي، من جهة، ولهيمنة الدّينيّ من جهة ثانية. والإيمان بالثّقافة هو إيمان بقدرتها وقدرة الأفكار على اختراق المجتمعات المغلقة.

وهذا هو التحدّي الحقيقي الذي يواجه المثقّفين العرب اليوم.

بيروت